

الخوف في شعر ابن حمديس الصقلي

د. حفيظ بولخراس

قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الشاذلي بن جديد - الطارف، boulakhrash@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2019/02/21

تاريخ المراجعة: 2019/02/21

تاريخ القبول: 2021/06/13

ملخص

يعكس شعر ابن حمديس الصقلي جوانب مختلفة من شخصيته وطبعه، من أهم تلك الجوانب علاقته بالآخر، التي يعدّ الخوف واحداً من محدداتها، وهو شعور عبّر عنه الشاعر بأشكاله المختلفة، ومظاهره المتعددة. كما لم يقف ابن حمديس ساكناً إزاء خوفه وإنما استعان بآليات شتى لمقاومته والتكيف معه، على شاكلته: العزلة، واللهم وشرب الخمر، والمواجهة والتحدي. وما هذا إلاّ إلمام بمختلف جوانب الخوف إلاّ دليل على ملازمة هذه الظاهرة للشاعر، ودورها في بلورة موقفه من الحياة والوجود.

الكلمات المفتاحية: شعر، شعر عربي قديم، خوف، ابن حمديس الصقلي.

Fear in the Poetry of Ibn Hamdis Al-Siqilli

Abstract

Ibn Hamdis Al-Siqilli's poetry reflects different aspects of his personality and signature style, one of the most important aspects being his relation to the other. Moreover, fear is one of his determinants; a feeling expressed by the poet in his different forms and manifestations. Ibn Hamdis did not remain silent about his fear, but resorted to various mechanisms to resist to it and cope with it, in the form of isolation, entertainment and drinking wine, confrontation and challenge. This knowledge of various aspects of fear is only evidence of the inherent phenomenon of the poet and its role in defining his position on life and existence.

Keywords: Poetry, ancient arabic poetry, fear, Ibn Hamdis Al-Siqilli.

La peur dans la poésie d'Ibn Hamdis Al-Siqilli

Résumé

La poésie d'Ibn Hamdis al-Siqilli reflète différents aspects de sa personnalité et de son empreinte, dont l'un des aspects les plus importants est son rapport à l'autre, la peur étant l'un de ses déterminants, un sentiment exprimé par le poète dans ses différentes formes et manifestations. Ibn Hamdis ne resta pas silencieux face à sa peur, mais il recourut à divers mécanismes pour lui résister et s'y adapter, sous forme d'isolement, de divertissement et de consommation de vin, de confrontation et de défi. Cette connaissance des divers aspects de la peur n'est que la preuve du phénomène inhérent au poète et de son rôle dans la définition de sa position sur la vie et l'existence.

Mots-clés: Poésie, ancienne poésie arabe, peur, fils de Hamdis al-Siqilli.

المؤلف المرسل: حفيظ بولخراس، boulakhrash@yahoo.fr

لم يتردد الشاعر العربي القديم في التعبير عن مشاعر الخوف التي تنتابه من حين إلى آخر، على اختلاف دواعيها وبواعثها، وذلك في بنى تعكس جانباً من رؤاه ونظراته إلى الآخر والزمن، وابن حمديس⁽¹⁾ واحد من الشعراء الذين برزت في شعرهم ظاهرة الخوف بشكل لافت للانتباه، وهذا بسبب الواقع المرير، وما عاشه من أحداث مؤلمة، على شاكلة فقد وطنه وأهله وشبابه. وقبل الغوص في أغوار شعره واستكناه ظاهرة الخوف عنده سنورد تعريفاً بسيطاً للخوف من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية.

1- تعريف الخوف:

جاء في لسان العرب، الخوف: الفزع، خافه يخافه خوفاً وخيفة ومخافة، وخَوْفَ الرَّجُلِ إذا جعل فيه الخوف، وخَوْفُهُ إذا جعلته بحالة يخافه الناس. ابن سيدة: خَوْفُ الرَّجُلِ إذا جعل الناس يخافونه، والخوف: القتل، والقتال، والتَّخَوُّفُ: التَّنْقِصُ⁽²⁾.

وقد حاول القدماء تحديد مفهوم الخوف انطلاقاً من بواعثه وآثاره، من بينهم الجرجاني الذي يرى بأن «الخوف توقع حلول مكروه، أو فوات محبوب»⁽³⁾ وقد بنى تعريفه هذا على أسباب الخوف. وإذا ترك الجرجاني الأسباب على الإطلاق فإن الراغب الأصفهاني يصنفها إلى مجهولة ومعلومة؛ إذ يقول: «الخوف هو توقع مكروه عن أمانة مظنونة أو معلومة»⁽⁴⁾. ويزاوج أبو حامد الغزالي في تعريفه للخوف بين بواعثه وآثاره النفسية، فيقول: «الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال»⁽⁵⁾، فالسبب يتمثل في المكروه أو الضرر الذي يمكن أن ينجم عن المؤثر، أما الأثر فيكمن في تألم القلب واحتراقه.

أما علماء النفس المحدثون فقد اختلفوا فيما بينهم في تعريفهم للخوف، ولعل من أدق التعريفات ما قدمه أسعد رزق الذي يذهب إلى أنه «أحد الانفعالات البدائية العنيفة يتملك المرء فيشله عن الحركة ويجمد نشاطه، يتميز الخوف بحدوث تغيرات واسعة المدى في الجسم، كما يتصف بسلوك لدى الشخص قوامه الهرب والفرار أو الكتمان والإخفاء»⁽⁶⁾، فهذا التعريف أحاط بموضوع الخوف من جوانب متعددة فبين طبيعته وأسبابه وآثاره النفسية والجسدية وكذا مظاهره وما يصاحبه من ردود فعل.

2- أنماط الخوف في شعر ابن حمديس الصقلي:

1-2 - الخوف من الله:

ويتجلى بوضوح في زهادياته التي يظن شوقي ضيف أنها قيلت في أواخر حياته⁽⁷⁾، وهي تجسد علاقة العبد بربه عبر مجموعة من المداخل كالخوف من الذنوب وارتكاب المعاصي، والخوف من عذاب النار، إضافة إلى التوبة، والتتويه بحقارة الدنيا ووضاعتها.

فهو يقول مستنكراً على نفسه اتباع الهوى وإصرارها على اجتراح الذنوب، ومعرباً في الوقت نفسه عن خوفه من تبعات سلوكه هذا بعد أن يوارى الثرى:

إلى كم أراني في هوى النفس خائضاً	ولم أتقِ الإغراقَ منها على نفسي
وقد شملتني شيبة لم أبت بها	فما لي في ليلي وقد طلعت شمسي
غربت بكفي المعاصي جاهاً	ولاشك أني أجتني ثمر الغرس
إلى الله أشكو جملة أرندي بها	وأصبح منها في الذنوب كما أمسي
فيا وحشي من سوء ما قدمت يدي	إذا لم يكن في القبر من رحمة أنسي ⁽⁸⁾

ويستشعر في موضع آخر ثقل معاصيه، ووقعها المؤلم على قلبه، راجيا من الله سبحانه وتعالى أن يبعث الطمأنينة في نفسه ويشمله برحمته:

ذُنُوبِي تَتَمِي كُلَّ يَوْمٍ تَكْسِبًا فَيَوْمِي بِهَا فِي الْيَوْمِ أَثْقَلُ مِنْ أَمْسِي
أَلَا أَمِنْ الرَّحْمَنِ خَوْفِي بَعْفِهِ فَإِنِّي مِنْ نَفْسِي أَخَافُ عَلَى نَفْسِي⁽⁹⁾

وكثيرا ما تتصاعد في شعر ابن حمديس نداءات الاستغفار والتضرع خشية من لقاء الله عز وجل بعد الموت على شاكلة:

فِيَا رَبَّ عَفِّكَ عَنْ مُذْنِبٍ يَخَافُ لِقَاءَكَ بَعْدَ الْحِمَامِ⁽¹⁰⁾

فهو يخشى عذاب النار وعقاب يوم الحساب لقاء تقصيره في عبادة الله جل جلاله، وفي أداء واجباته نحوه، لذلك يقول:

يَا رَبَّ إِنَّ النَّارَ عَاتِيَةٌ وَبِكُلِّ سَامِعَةٍ لَهَا حَسٌّ
لَا تَجْعَلُنْ جَسَدِي لَهَا حَطْبًا فِيهِ تَحَرَّقُ مِنِّي النَّفْسُ
وَارْفُقْ بَعِيدٍ، لَحْظُهُ جَزَعٌ يَوْمَ الْحِسَابِ، وَنُطْقُهُ هَمْسٌ⁽¹¹⁾

ويبدو أن هذا الإحساس قد سيطر عليه في مرحلة شيخوخته حين أحس بقرب النهاية ودنو الأجل مثلما يظهر في قوله:

دَبَّ مَوْتُ السَّكُونِ فِي حَرَكَاتِي وَخَبَا فِي رَمَادِهِ حُمُرُ جَمْرِي
وَأَنَا حَيْثُ سَرْتُ أَكُلُّ رِزْقِي غَيْرَ أَنَّ الزَّمَانَ يَأْكُلُ عَمْرِي
كُلَّمَا مَرَّ مِنْهُ وَقْتُ بَرِيحٍ مِنْ حَيَاتِي وَجَدْتُ فِي الرِّيحِ خَسْرِي
يَا رَفِيقًا بَعِيدَهُ وَمَحِيطًا عِلْمُهُ بِاخْتِلَافِ سِرِّي وَجَهْرِي
مَلْ بَقْلِي إِلَى صَلَاحٍ فَسَادِي مِنْهُ وَاجِبٌ بِرَأْفَةٍ مِنْكَ كَسْرِي
وَأَجْرُنِي مِمَّا جَنَاهُ لِسَانِي وَتَنَاجَيْتُ بِهِ وَسَاوَسَ فِكْرِي⁽¹²⁾

فشعوره بقرب الموت جعله يتأمل حياة ما بعد الموت، ويفكر في الثواب والعقاب، حاملا بين أضلاعه إحساسا عميقا بالندم والحسرة على ما اقترفته يده من سيئات، مما دفعه إلى التوسل إلى الله عز وجل بصفاته العلى (العلم والرأفة والهداية) آملا في الإجابة.

2-2 - الخوف من الموت:

لقد كانت مشكلة الموت مصدر قلق للبشرية على اختلاف الأعصر والأزمنة، وبالمقابل كان الخلود حلما يراودها عبر التاريخ، لكن هذا الحلم يبدده الواقع باستمرار، لأن كل خطوة يتقدمها المرء في العمر هي في الحقيقة خطوة نحو النهاية⁽¹³⁾، فكل يوم يزيد في عمر الإنسان يُنقص من الإمكانات القصوى للحياة لديه، ويقرب إليه ساعة النهاية، لذلك فمشكلة الفناء هي من أكبر ما ينغص على الإنسان ويخيفه «فالإنسان يرهب الموت لأن الحياة تعني -في نظره- الاستمرار في البقاء، وهو يريد أن يحيا أبدا»⁽¹⁴⁾.

وقد أحس ابن حمديس بالموت إحساسا حادا، وكثيرا ما يمرّ بخلدّه خاصّة في رثائياته وزهدياته وبعض قصائده التي قالها في أواخر حياته، وهذا الموضوع يطفو على سطح أفكاره ووعيه -عموما- عندما يتوقّف مثير له -مهما كان هذا المثير- فيعبر عندئذ عن خوفه وخشيته منه مثلما حدث له لمّا أصابه مرض وهو شيخ فأحسّ بقرب الأجل فقال:

وكنْتُ إذا مرضتُ رجوتُ عيشاً لياليَ كنتُ في شرحِ الشبابِ
فصرتُ إذا مرضتُ خشيتُ موتاً وقلتُ: قد انقضى عددُ الحسابِ⁽¹⁵⁾

قد يظنّ ظانٌّ أنّ المعيّنين في البيتين متشابهان يؤديان إلى النتيجة نفسها، لكن من يتدبّر ويمعن النظر فيهما أكثر يدرك أنّهما يختلفان عن بعضهما الاختلاف كلّ، ففي الأوّل يتراءى لنا رجاءه وما يحمله من إلحاح، وأمل وتطلّع، وإرادة في العيش وكلّ ما يوحي به هذا الموقف من إيجابية، وربما لأنّ اغتراره بالشباب - آنذاك - أبعد - نوعا ما - عن ذهنه فكرة الموت، ولكنّ البيت الثاني يسفّر عن جزعه من الموت، وما انجرّ عنه من روضوخ واستسلام وخمود وإرادة، وكلّ ما يوحي به الموقف من سلبية وانسحابية أمام المنون التي بات احتمال حدوثها كبيرا في مرحلة الشيخوخة، وعلى وجه الخصوص إذا أناخت به علة أو مرض، مما يقلّل من فرص النجاة من قبضتها، لهذا فقد أضحت هاجسا لا يفارقه.

وتزداد هذه النظرة حدّة ويزداد هذا الإحساس تفاقما وتضحما شيئا فشيئا حتى يشارف ذروته عندما بلغ الثمانين عاما حيث يقول:

أرى الموت في عيني تخيلَ شخصه ولي عُمُر في مثله يتقي مثلي
وكادت يدٌ منه تشدّ على يدي ورجلٌ له بالقُربِ تمشي على رجلي
وفي مدّ أنفاسي لديّ وجزرها بقاءً لنفسٍ غير مُتصل الحبل⁽¹⁶⁾

لقد تلاشى عنده -في هذه السنّ المتقدّمة- كلّ أمل في الحياة؛ إذ أصبح يحسّ إحساسا طاغيا بدنو أجله، إلى درجة أنّه أضحي يرى صورة الموت ماثلة أمامه قريبة منه أشدّ القرب، وفي الفعل "كاد" دلالة من جهة على قرب ساعة الموت، ومن جهة أخرى على القلق المستمرّ منها والتّرقّب الدائم لها. إنّ فرع من هذا المأل لمجرد تذكّره للمنيّة وتفكيره فيها مما ألقى به في حيرة عارمة، وأدى به إلى التّساؤل بمرارة وأسى وبيل عن علة كون الموت مدعاة للخوف والأوجاع فقال:

فما للردى من منهلٍ لا نسيغُه وواردُه يغنى عن العَلِّ بالنهل⁽¹⁷⁾

إذا فتقصّيه لحقيقة الموت -هنا- وتأمّله فيها نجم عن اعتباره لها قضية تتعلّق بذاته أولا وقبل كلّ شيء، فقد عانى مشكلة الفناء انطلاقا من نفسه.

وهو علاوة على ذلك تأمّلها وعانها -أيضا- على صعيد أكثر شموليّة ليمسّ البرية جمعاء، بل الكون كلّ، لنقرأ قوله لما بلغ خمسة وخمسين عاما:

دُنْيا الفتنَى تفنَى لذا خُلِقَتْ وتموتُ فيها الجنّ والإنسُ
إِنّا لأدَمَ كلنّا ولَدُ وحمأنا بحمامه جنسُ
وأقلّ ما يبقى الجدار إذا ما انهَدَ تحت بنائه الأسُ⁽¹⁸⁾

وكأنّ هاجس المنايا يلاحق الكائن البشريّ لمجرّد ولادته، بل يلاحق المخلوقات جميعها لمجرد أنّها خُلقت، فالدنْيا خُلقت لتفنى -كما يقول، «وليس أقسى على الموجود الذي يملك الحرية، ويحنّ إلى الأبدية وينزع نحو اللانهاية، من أن يشعر بأنّ لحيّته حدودا، وأنّ الزّمان ينشبُ أظفار الفناء في عنقه، وأنّ التّناهي هو نسيج وجوده»⁽¹⁹⁾

وحتى ولو أمعن الشّعراء في اللذة والاستمتاع فإنّ فكرة الموت تبقى قابضة في أعماقهم⁽²⁰⁾، هذا ما نستشفّه لما نقرأ قول ابن حمديس:

كلفت بكاسات الصبوح مبكرا
هو العيش فاغنم من زمانك صفوه
وكم بركات للفتى في بكوره
وصد قنص اللذات قبل مثيره (21)

فعلى الرغم من انهماكه في الاستمتاع بمباهج الحياة، وعلى الرغم من نشوة السكر، إلا أنه يأتي في نهاية القصيدة ليطالب من يستمع إليه باغتنام الفرصة والتمتع بلذائذ العيش لأنه يعلم في أعماقه بأن هذه الحياة وهذه اللحظات زائلة ولا بد، وأن الموت مدرك الحي لا محالة، وأن هذه الوسيلة هي حيلة البشر لقهره ونسيانه ولو للحظات، ومن هنا فإن هذه الفكرة - عند ابن حمديس - لم تقتصر على قصائد الرثاء والزهد بل تغلغت حتى إلى أغراض ومواضيع أخرى كوصف الخمر مثلما رأينا، فقلقه حيال مشكلة الفناء يتملكه حتى وهو في أزهى وأسعد الأوقات.

وعلى ما يبدو فإن فقدانه لبعض أهله وأحبابه إلى الأبد، بين الفينة والأخرى، كان يعمق - كل مرة - من قلقه، ويضخم شعوره بالخوف من الموت:

وإنّ المنية من نحوها
ألم ترها بحصاة الردى
عليك بأظفارها واثبه
لكل حميم لها حاصبه (22)

إن كل ما يفعله الموت شكل في خياله صورة مرعبة عنه، مما أثر في نعوته له، فهو تارة وحش مفترس لا يرحم، وتارة أخرى صياد ينصب الأشراك للبرايا، أو مرض مستعص لا دواء له (23)، وأحيانا سم ما له ترياق (24)، وأحيانا أخرى كائن شرير غادر لا يؤمن غدره (25)، إلى غير ذلك من الأوصاف الأخرى. وقد ساعدت على تأجيج إحساسه هذا، تلك الظروف القاسية التي مرّ بها، وكذا تغربه، والأحداث المروعة التي شهدا، وهلاك العديد من المقربين إليه، وشيخوخته... إلى غير ذلك من البواعث الأخرى، ولعل ذلك كله كان يحسسه - باستمرار - بدنو النهاية واحتمال حدوثها في أية لحظة.

2-3 - الخوف من الزمن أو الدهر:

يعدّ موضوع الزمان أو الدهر من أهم الموضوعات التي شغلت الإنسان العربي القديم، والشعر بدوره - في تلك المرحلة - لم يغفل عن هذه المسألة، وعالجها وعبر عنها، من ذلك - مثلا - قول امرؤ القيس:

ألم يحزنك أن الدهر غول
ختور العهد يلتهم الرجال (26)

فقد اعتبر الدهر غولا غادرا أشد الغدر مما ينم عن رفض وعدائية دفينه تجاه الدهر وما يحكم به من مصائب وبيئات.

وقد بلور القرآن الكريم نظرة الإنسان العربي القديم نحو الزمان، وموقفه منه، في قوله تعالى على لسان الجاهليين: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» (27). ترسم هذه الآية صورة الدهر بمنظار الجاهلي، تقضي بعليته وقوته المطلقة، وقدرته اللامحدودة على التأثير في المرء وهلاكه.

وكما أعرب الشاعر الجاهلي عن خوفه من الزمن، فقد أعرب عنه الشعراء في مختلف الحقب اللاحقة لذلك العصر، مثلما هو موجود في عهد ملوك الطوائف في الأندلس وعهد المرابطين في المغرب، وهذان العهدان بما تميزا به من أحداث، من تقلب الأوضاع، وكثرة الحروب والفتن والصراعات عموما؛ قد خلّقا أثرا عميقا وكلوما بعيدة الغور في نفوس الشعراء، فاتجهوا إلى الزمان يودعونه شكواهم، ويطعنون بغدره وغروره (28)، من بين هؤلاء

ابن حمديس الصقلي الذي كثيرا ما تتصاعد زفراته وأناته من شعره فيعبر عن قسوة الزمن وسطوته، ولسان حاله يعبر عن ذلك فيقول:

وكيف يصفو لنا دهرٌ مشاريهٌ يخوضها كل حين جحفلُ الثوب⁽²⁹⁾

يتضح جليا هنا أن المآسي لا تفارقه، والنكبات لا تراوحه، ولعل أعظم هذه النكبات والمآسي وأشدّها تأثيرا في الشاعر نكبة وطنه واستيلاء النورمنديين عليه⁽³⁰⁾. فهو أمام هذا المصاب الجلل الذي تتصدع له الجبال وجد نفسه في مواجهة الزمان فحمله مسؤولية ضياع صقلية، ومن صيحاته ما يبين في قوله:

صقيلةٌ كادَ الزمانُ بلادها وكانت على أهل الزمان محاربا
فكم أعين بالخوف أمست سواها وكانت بطيب الأمن منهم نواعسا
أرى بلدي قد سامه الروم ذلةً وكان بقومي عزه متقاعسا
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه فأضحى لذاك الخوف منه لابساً⁽³¹⁾
قف بالتفكير يا هذا على زمن جم الخطوب ومثل صرقه وقس
ولا تكن عنده للسلم ملتمساً فالأري في فم صل⁽³²⁾ غير ملتمس⁽³³⁾

لقد علّمته الحياة أن الدهر لا يؤمن جانبه، ولا يلتمس منه إلا الكيد والشر، لذا على المرء أن يأخذ حذره منه على الدوام. وهذه النظرة التشاؤمية و «الشكوى وليدة تلك الظروف القاسية التي ألّمت بابن حمديس فأصبح بعد سقوط وطنه ونزوحه عنه دائم الأسى، كثير الشكوى، ساخطا على الزمان الذي انتزعه من أهله، وحكم عليه بالتشرد والاعتراب»⁽³⁴⁾.

2-4- الخوف من الناس:

لقد عاش ابن حمديس في عصر تميز بالاضطراب وعدم الاستقرار، وقد ساهم هذا الوضع في انتشار الآفات الاجتماعية والعادات السيئة، فتفشّت الرذيلة، وطمّ الفساد، وغاضت العلاقات الإيجابية لتحل محلها العلاقات المادية والمصلحية، فانقلبت الموازين وتغيّرت المقاييس، وتراجعت المبادئ السامية من صدق، وصدقة، ووفاء، وكرامة ... إلى غير ذلك، أمام العادات الرديئة من خداع، وخيانة، وغش، ونفاق ... وغيرها، هذا ما جعل أصحاب النفوس النبيلة والمبادئ السامية يخافون من الناس ويفقدون الثقة فيهم، ويشعرون بعدم الأمان منهم، من هؤلاء الشاعر ابن حمديس الذي يقول:

فيا سائلي عن أهل ذا العصر دعهم فبالفرع منهم يستدلّ على الأصل
إذا خلل في الحال منك وجدته فإياك والتعويل منهم على خيل⁽³⁵⁾

هذه هي خلاصة حياته ونظرته نحو الناس، فقد خاب ظنه فيهم، فبعد معاشرته لهم طويلا لاقاهم غير جديرين بالثقة، ولا مجال للاعتماد عليهم، لأن الخذلان من شيمهم، وقد استفاد من تجربته الخاصة ليؤسس قاعدة عامة، وهذا ما يفهم من "فبالفرع منهم يستدلّ على الأصل"، زد على ذلك ما يضيفه عنصر الحوار على المعنى، فانطلق هذا الأخير إلى فضاءات أرحب، ليتجاوز الفردية، ويعبر عن الجو النفسي العام لأولئك الذين اصطدموا بانحراف قيم المجتمع الأخلاقية والاجتماعية، وليست هذه النزعة غريبة عن هذا الشاعر الذي جاء شعره مشتملا «على جولات فكرية مملوءة بأحواله النفسية، والآلام التي يشعر بها، وكثيرا ما تظهر هذه الآلام آلاما لجميع الشاكين والمتألمين من الحياة ... لذلك كان ابن حمديس شاعرا نفسيا ناقما على الحياة وما فيها»⁽³⁶⁾.

ومن بين السلوكات التي اكتوى بنارها وجعلته يخاف الناس ويحذرهم: الغيبة والنميمة وإباحة أعراض الناس، يقول:

ألا ربَّ كأسٍ تَقْتَضِي كلَّ لَذَةٍ أَكَلْتُمْ عَلَيْهَا، طَوَّلَ لَيْلَكُمْ، لَحْمِي
بلى لو قَدَرْتُمْ لَأَتَّخَذْتُمْ شَرَابَكُمْ دمي في كؤوسٍ وهي تتحتُّ من عظمي (37)

يبطن هذان البيتان إحساسا مريرا يكشف عن سخطه الدفين من هذه الآفة السيئة، ولم يجد وسيلة أقدر على إخماد جمره غضبه من الشعر فأودعه زفراته وأناته، فالشاعر عندما يبدي غضبه بكلمات مريرة، تخف وطأته عليه (38)، يتجلى ذلك في عبارات مثل: "أكلتم ... لحمي"، "اتخذتم شرابكم دمي"، "كؤوس تتحت من عظمي"، هاته العبارات إن دلت على شيء إنما تدل على صراعه النفسي من جراء هذا السلوك، وعن انزعاجه، وحنقه على الذين اغتابوه.

ومن بين الأخلاق البذيئة التي تنتشر في المجتمع عند اختلال القيم وفساد الذمم: الخيانة، والتي يبدو أنها لفحت ابن حمديس بنارها فتركت جرحا عميقا في فؤاده لا يبرأ مع مر السنين، هذا ما نحسه عند قراءة قوله مثلا:

أتحسبني أنسى ، وما زلت ذاكرًا، خيانةً دهري أو خيانةً صاحبي (39)

الاستفهام هنا ليس هدفة انتظار الجواب، بل الغرض منه هو النفي، أي إنه ينفي إمكانية نسيانه لخيانة صاحبه - مع أنه لم يذكر هذا الصاحب - كما أن تسويته بين خيانة الدهر وخيانة هذا الصاحب توحى بأن أمرا خطيرا قد حدث له - على الأقل في نظره - مع صديق غير مجرى حياته - أيا كان هذا الصديق - وهذه الحادثة اعتملت في داخله وأثارت الحزن في نفسه فراح بعد ذلك يحدثنا وفي القصيدة عينها عن تجربته على أرض الواقع والتي أثبتت له بأنه هيهات أن يعبر مظهر الشخص عن جوهره فيقول:

علمتُ بتجريبي أمورا جهلتها وقد تجهل الأشياء قبل التجارب
ومن ظنَّ أمواه الخضارم (40) عَذْبَةً قضى بخلاف الظنّ عند المشارب (41)

ويقول في موضع آخر محذرا من الاغترار بالمظاهر التي لا تعدو أن تكون بريقا زائفا:

بأي وفي في زمانك تختص فيغلو غلوا في يدك به رخص
وكم من عدوٍ كامنٍ في مصادقٍ وموضعٍ آمنٍ فيه يحترسُ اللص (42)

فالمظهر الذي بات هو المقياس للحكم على الشخص ما هو إلا مقياس باطل قد يؤدي الانبهار به والانسحاق له إلى عواقب وخيمة.

2-5- الخوف من المكان:

يتحول المكان في الخطاب الشعري من فضاء مادي إلى بنية نصية تعكس تجربة الشاعر المتفردة ورؤاه وأحاسيسه، وتتشأ هذه البنية من تفاعل الشاعر مع المكان وتأثر أحدهما بالآخر؛ إذ «يفرض كل مكان سلوكا خاصا على الناس الذين يلجأون إليه. والطريقة التي يدرك بها المكان تضيف عليه دلالات خاصة» (43) ومن السلوكات التي تستوجبها بعض الأماكن: الخوف والرغبة، على شاكلة البحر والصحراء والحصون والقلاع التي انطبعت في شعر ابن حمديس بطابع خاص نتيجة لنفسية الشاعر الحساسة والقلقة، وكذا حياته غير المستقرة، ومعايشته للكثير من الأحداث المؤلمة.

لا يتحرج ابن حمديس من إبداء خوفه من البحرفي العديد من المواقف من مثل قوله:

وقوله:

فعلى الرغم من سخاء البحر وفوائده الجمّة إلا أن الشاعر يرسم له صورة قاتمة قائمة على المقابلة بين نقيضين يذوب أحدهما في الآخر وهما: "الطين" و"الماء" وهذه الصورة التي تنتصر للبحر تتبع من خوف عميق من الغرق أجبته حادثة الغرق التي نجا منها دون جاريته الغالية جوهرة، وهو يوثّق هذه الواقعة في قوله من قصيدة بعثها إلى أهله يعتذر فيها عن العودة إلى الوطن:

لا يخفى ما تبطنه هذه الأبيات من شعور ساحق بالخيبة والحيرة والحسرة جراء حادثة الغرق تلك، فعلى الرغم من نجاته إلا أن البحر حرمه من أعز ما يملك: وطنه وأهله وجاريته جوهرة التي وصفها بالشمس، لذلك أصبح الخوف من البحر هاجسا «ما انفك يلازمه حتى رحل إلى دنيا الخلود ولم يستطع أن يتجاوز ذلك الشعور بالخوف ويتغلب عليه بدافع لا إرادي، وشعور داخلي نابع من نفسه القلقة»⁽⁴⁸⁾.

فالصحراء تقتنن في ذهنه بالخوف والموت والهلاك إلى درجة أن السفر عبرها يشبه إثم من يلقي بنفسه إلى التهلكة، لذلك يتوجب على من يقطعها التوبة من هذا الذنب.

ويعمد الشاعر إلى ذكر مظاهر الصحراء المرعبة من حرارة حارقة، ووحوش ضارية وعطش وانعدام المياه وذلك لكي يولد مشاعر الفزع لدى المتلقي فيقول:

فهذه الصحراء شاسعة، قاحلة، حرارتها تذيب الصخر لشدتها، ولا ماء فيها، وتسكنها حيوانات ضارية كالذئاب، هذا ما يشكل خطرا رهيبا على الإنسان والحيوان على حد السواء. ويهدف الشاعر من وراء هذا الوصف إلى التعبير عن جلده وشجاعته بسفره عبر مجاهل الصحراء ودروبها المحفوفة بالمخاطر.

ونظرا لخطورة ركوب البحر واعتساف الفلوات وظفهما الشاعر لاستمالة عطف الممدوح:

كم فلاة دونه يدفعها	سُنْبُكَ العدو إلى خفّ الرسيم
لابن آوى وَسَطُهَا وَعَوَعَة	تُوحِشُ الْإِنْسَ، وللبوم نئيم
وعظيم الهول لولا آية	لم يَكُنْ رَاكِبُهُ إِلَّا أَثِيم
لم تزل عيني أو أدني به	تُؤَذِّنُ القلب بخوف لا ينيم
قد جمعت العزم ما بينهما	بالسرى والنجم بالليل البهيم (54)

لا شك أن الخوف من الصحراء والبحر يزداد بحلول الليل لقتامتهما المرعبة، لذلك يصور ابن حمديس للممدوح تحدّيه الدائب للصحراء والبحر ليلا في سبيل المثل بين يديه ومدحه، حتى يلين قلبه وينال الخطوة عنده. لا يقتصر شعور الخوف من المكان على الأماكن الطبيعية؛ بل يطال حتى القلاع والحصون والقصور وغيرها، والتي لها وقع شديد وهيب في النفوس تتبثق من طابعها المعماري ووظيفتها الدفاعية «فالمكان يحمل في طياته قيما تنتج من التنظيم المعماري كما تنتج من التوظيف الاجتماعي» (55)، ويظهر هذا الإحساس في وصف ابن حمديس لحصن اسمه الأجم:

حصن بنته لصون الملك كاهنة	وأفرغت فيه من تدبيرها الحكم
على الحصون مطلق في مهابته	تلك البغات وهذا الأجل القرم
كأنه من بروج الجو منفرد	فنظرة منه فوق الأرض تغتم
كالأبلق الفرد لم يركن إلى طمع،	لفتح قلبها، عرب ولا عجم
أو مارد في غرام من تمرده	بمثله العصم في الأطواد تعصم
يشم زهر الدراري الزهر من كئيب	بين البروج بعننين له شمم
وهو الأجم، ولكن لو يناطحه	طود، لنكب عنه، وهو منظم
كانت مغانية في صدر الزمان لكم	وللأسود الضواري ترجع الأجم (56)

إن هذا الحصن يحوز سمات تجعله ذا هيبة ورهبة، كالعلو والضخامة والصلابة وبراعة التشييد، علاوة على تاريخه الحافل بالصمود والانتصار. لكن هذه الهيبة وهذه السمعة لم تصمدا أمام جيش الممدوح، فما إن تيقن الشاعر من اكتمال الصورة التي ارتأها لهذا الحصن حتى فاجأنا في البيت الأخير بحدث فتح من قبل الممدوح، كل هذا من أجل إبراز الممدوح في هيئة القائد الذي لا يُقهر.

2-6 - الخوف من بعض الظواهر الطبيعية:

الخوف من القوة والخضوع لها فطرة في الإنسان، فهو يخاف من المظاهر الطبيعية الحادة ويخشى سطوتها عليه، وقد ينقلب هذا الخوف أحيانا إلى طاعة وأحيانا أخرى إلى خضوع وتقديس، وقد يأخذ شكل شعائر وطقوس يمارسها الإنسان بقصد التقرب منها ونيل رضاها (57)، من الظواهر المخيفة: المطر والريح والرعد والبرق وغيرها من الظواهر الأخرى.

إن الأمطار والرياح عند ابن حمديس غالبا ما تكون رمزا للخير والعطاء والخصب والنماء، لذلك لم يلتفت إلى ما هو مدمر منها، غير أنه أبدى خوفه -في أكثر من موضع- من البروق والرعود على شاكلة قوله:

وكأن البرق فيها حاذفٌ بضرام كلما شبّ خمد
تارةً يخفو⁽⁵⁸⁾ ويخفى تارةً كحسامٍ كلما سُلّ غمْدُ
يَدْعُرُ الأبصارُ محمراً كما قلب الحماق في الليل الأسود⁽⁵⁹⁾

فظهر البرق الخاطف وضوؤه الممتد عبر أرجاء السماء ولونه الأحمر مظاهر تحبس الأنفاس وتقذف الرعب في النفوس.

ويقول أيضا:

ومُديمة لَمَعَ البروقِ كأثما هَزَّتْ من البيضِ الصفاحِ متونا
وسرتُ بها الرِّيحُ الشمالُ فكم يدُ كانت لها عند الرِّياضِ يمينا
صرختُ بصوتِ الرّعدِ صرخة حامل ملأت بها الليلَ البهيم أنينا⁽⁶⁰⁾

يتحدث عن ليلة حالكة لم تتوقف فيها البروق عن اللعنان، فبدت السماء وكأنها تلوح بالسيوف، وبينما هي كذلك حتى اهتزت السماء بصوت الرعد المفزع لتهتز معها قريحة الشاعر وتجد بصورة فريدة شبه فيها صوت الرعد بصرخة امرأة حامل عمّت الفضاء واجتاحت هدوء الليل الحالك.

ويعلو صوت السماء بالرعد تعبيرا عن الحزن، وعن رفض الواقع الأليم في رثائه للأمير يحيى بن تميم بن المعز:

شُقَّتْ جيوبُ المعالي بالأسى وبكتُ في الخافقين عليه الأنجمُ الزهرُ
إذ السماءُ بصوتِ الرعدِ صرختها يكاد منها فؤادُ الأرضِ ينفطرُ
والجوُّ متَقَدُّ الأحشاءِ مُكْتَتِبٌ كأثما البرقُ فيها للأسى سَعُرُ⁽⁶¹⁾

وقد لعب التشخيص هنا دورا محوريا في تجسيد الموقف الجنائزي المهيب بشتى أبعاده، وفي التعبير عن حزن الشاعر العميق الذي انسحب على كل شيء، فالمعالي شُقَّتْ جيوبها جزعا، والأنجم الزهر تَبَكَّى فَقَدَ الأمير يحيى، والجو مكتتب جرأ هذا المصاب الجلل.

3- مظاهر الخوف:

إن تعرض المرء لموقف مخيف تصحبه علامات وأمارات مختلفة تظهر في الجسد والنفوس، تعبّر عن خروج الإنسان من حالة الإحساس بالأمن والطمأنينة إلى حالة من الاضطراب والقلق والاستقرار، من هذه العلامات والأمارات: الحيرة والقلق الناجمين عن الفشل في تحقيق الانسجام بين دوافع النفس والواقع المعاش⁽⁶²⁾.

وفي هذا السياق يلمح ابن حمديس إلى حالة الحيرة والقلق التي لَقَّتْ أهل سفاقس قبل تولي علي بن يحيى ولاية سفاقس:

وعارض مدَّ عرضَ الجو وانسبلتُ في وجنة الأرض منه أدمعُ السبلِ
أحيا الإلهُ بها التربَ المواتَ كما أحيا سفاقسَ يحيى بالهمام علي
كفو كفى الله في الدهر الغشيم به خطباً يخاطبُ منه ألسنَ العُضَلِ
أقرّ فيها أناساً في مواطنهم لما تتادوا لتوديعٍ ومرتحلِ
وأثبت الله أماناً في قلوبهم بعد التقلب في الأحشاء من وجل⁽⁶³⁾

ولنا أن نتصور أثر سوء الأحوال واضطراب الأوضاع على أنفس هؤلاء القوم قبل مجيء منقذهم، فهم كانوا يتخبطون في دوامة من القلق والحيرة والضياح، ويتألمون من جراء ترقب الأخطار من جهة، ومن جراء انتظار ساعة الفرج من جهة أخرى.

ويفصح الشاعر عن الخوف والتوتر الحاد الذي اعتراه أثناء رحلته نحو الممدوح:

حللنا بمغناك الذي يُنبِتُ الغنى ويُجْري حياةَ اليُسْرِ في مَيِّتِ العسر
وكم عَزَمَ خضنا بها هَوْلَ لُجَّةٍ كصارك الماضي، ونائللك الغمر
وجدنا المُنَى والأمن بعد شدائد تَقْلُبُ أفلاذَ القلوب من الذعر⁽⁶⁴⁾

فعلى الرغم مما مر به من مصاعب ومتاعب إلا أن نفسه ركنت إلى الهدوء والسكينة بعد أن حلّ بربوع الأمير يحيى بن تميم بن المعز، ويعد أن نال مبتغاه.

ويتضرع الشاعر إلى الله عز وجل ناقلًا إحساس الخوف الطاغي الذي يسيطر على كيانه العبد يوم الحساب، وذلك من نافذتي العينين والنطق:

وارْفُقْ بعيدٍ، لحظه جَزَعٌ يَوْمَ الحساب، ونُطْقُهُ همس⁽⁶⁵⁾

لقد اختار أقدر الأعضاء على نقل ما يجول في خاطر الإنسان وضميره: "العينين" و"اللسان" «فالعين باب القلب، فما كان في القلب ظهر في العين»⁽⁶⁶⁾، والخوف يظهر في العين بشخوص البصر واتساع الحدقتين، أما اللسان فقد يوهنه الفزع فلا ينطق إلا همسا، مثلما نراه في البيت السابق.

ونذكر من لوازم الخوف أيضا: "الأرق" الذي يحرم الشخص الخائف لذة النوم ويسلب أجفانه نشوة الكرى، فقد يرتاع الإنسان عند سماع صوت الرعد مثلا فيجره النوم:

أَرْقُ الأجفان رعدُ صوتهُ كهديرِ القَرَمِ في الشَّوْلِ حَفَدَ⁽⁶⁷⁾ (68)

وقد يجلب السهاد فَعَزُ عزيز على نحو ما عاناه ابن حمديس عندما توفي ابن أخته:

سَهْرٌ كرى مُقَلِّ تخافُ من الرَدَى للخوف هجرُ الطير ماءَ ثَماد⁽⁶⁹⁾

فموت عزيز أو قريب حدث مروع يقع كالطير الجارح على المرء فيزعزع نفسه ويوردها الهموم والأسقام والأرق والسهاد، ولتقريب المعنى من ذهن المتلقي شبه الشاعر العيون التي تسهر خشية الردى بالطير الذي يشرد عن حوض الماء خوفا من الخطر.

ويصرّ ابن حمديس في أكثر من مناسبة على أن الشيب الذي غزا شعره في مرحلة شبابه من آثار تجشم الصعاب وركوب الأهوال والأحداث المروعة التي عاشها، فهو يقول:

لشَيِّئِي في عنفوان شبيبتِي لقائي من الأيام دهياءَ فادِحَه⁽⁷⁰⁾

ويقول أيضا:

أُنْبَتَ الدهر في المفارقِ شيباً بهموم في مُضْمَرِ القلبِ يُزْرَعُ⁽⁷¹⁾

ويعد الهرب وسيلة يدرأ بها المرء عن نفسه الشر والهلاك فيلوذ بالفرار حين يحس بخطر وشيك، مثلما فعل الروم عندما هزمهم علي بن يحيى بأسطوله البحري:

أراك الله في الأعلاج رأياً لهم منه المذلة والصغار
رأوا حربيةً ترمي بنفط لإخماد النفوس له استعار
فردّ الله بأسهم عليهم فريحهم بصفقتهم خسار

وخافوا من منايهم وفَرُّوا
وقد جعلوا لهم شُرْعَ الشَّوَانِ (72)
فدافعَ عن نفوسهم الفِرَار
مع الأرواح أجنحةً وطاروا (73)

ومثلما فعل الفنش عند انهزامه أمام المعتمد بن عباد في معركة الزلاقة:

ومُعْتَرِكٌ تَلَقَّى الفنشُ فيه
تَسْتَرُّ بِالظَّلَامِ وفَرَّ خوفاً
غريماً مهلكاً نفسَ الغريمِ
بروعٍ شقٍّ سامعتني ظليماً (74)

يبدو أن الهرب عند ابن حمديس يدل على الجبن؛ إذ يقتزن في شعره بالحديث عن انهزام الأعداء في معاركهم أمام ممدوحه وفرارهم منه أملاً في النجاة من قبضته.

ونلني من مظاهر الخوف البكاء الذي نلمحه في قوله واصفا السبايا من بنات الروم:

كم بأرضِ الشُّركِ من معمورةٍ
في أساطيلَ ترى أحشاءها
أصبحت في غَزْوِهِ وهي يَبَابُ
لبنات الروم فيهنَّ انتحاب (75)

ولا تقتصر مظاهر الخوف التي خص بها الأعداء على الهرب والبكاء وإنما نجد كذلك "اصفرار الوجه" في قوله يمدح الحسن بن علي بن يحيى ويذكر انهزام عدو صقلية عام الديماس:

أبى الله إلا أن يكون لك النصرُ
بنو الأصفرِ اصفرَّت حذاراً وجوههم
وأن يهدم الإيمان ما شاده الكفرُ
فأيديهم من كل ما طلبوا صفرُ (76)

وهنا تثير انتباهنا تلك العلاقة الطريفة التي عقدها الشاعر بين اللون الأصفر باعتباره مميّزا للجنس أو العرق وبين اللون الأصفر بعدد من علامات الخوف، وكأنه يريد إظهار تأصل الخوف والجبن في أعماق نفوس الروم.

4- آليات مقاومة الخوف عند ابن حمديس:

يعمل الشخص الخائف جاهداً على مقاومة خوفه والتغلب عليه متوسلاً بطرق وإجراءات تتناسب مع دوافع الخوف والقدرة على المواجهة والأساليب المتوفرة (77)، ومن هذه الوسائل: العزلة التي يلجأ إليها لمقاومة خوفه من الناس على وجه الخصوص، وهو يصرح بذلك في قوله:

ولما رأيت الناس يُرهَبُ شرهم
تجنبتهم، واخترت وحدةً راهب (78)

لَمَّا خَبَرَ النَّاسَ اعتزلهم مخافة السَّقُوطِ في شباكهم، والانزلاق في غيهم، والوقوع في أحابيل أقران السَّوءِ، وحتَّى يحفظ مبادئه وأخلاقه من التَّمَيُّعِ والانحلال، فكما يكون اعتزال النَّاسِ «التماساً لعمق المعاناة وأناة التَّمَثُّلِ وجُلُوةِ التَّأَمُّلِ ونفاذِ الرُّؤيةِ، يكون أيضاً فراراً من بشاعة الواقع عن يأس منه أو عن رفض له» (79)، فالعزلة - بناءً على قول عائشة عبد الرحمن - مطلب فنيّ وأيضاً دلالة على رفض الواقع والاحتجاج عليه، ففساد المجتمع من الدوافع الرئيسة لاعتزاله.

ويبدو أن غريته وبعده عن وطنه وأهله قد ساهم بشكل كبير في استفحال خوفه من الناس وما انجر عنه من اعتزالهم وتجنبهم، هذا ما يُلَمَحُ في قوله:

وقد بَدَّلْتُ بعد سَرَاةٍ قومي
وَأَلْفَيْتُ الجليسَ على خلافي
ذئاباً في الصحابة لا صحاباً
فَلَسْتُ مُجَالِساً إِلَّا كِتَاباً (80)

فالشاعر - حسب ما يُسْتَشْفَى من هذه الأبيات - لَمَّا قَدَّ في الحاضر ما يعوّضه عن قومه الذين كان يأنس بهم في الماضي، شعر بالخوف والوحشة أمام واقع مؤلم يعيشه في كنف مجتمع غريب عنه، فلم يجد بداً من

اعتزال الناس واستعاض عنهم بالكتاب؛ إذ إن متعة العلم تغنيه عن المجتمع برمته، وتعينه على الانتصار على قلقه واضطرابه، وتبدد همومه وأحزانه.

ولكن هذا لا يعني أن ابن حمديس لا يختلط بالناس لأن ظروف الحياة والعيش تفرض عليه الاحتكاك بهم خاصة وأنه ممن يتكسبون بشعرهم، إلا أن هذا الاحتكاك لا يتعدى أن يكون ظاهرياً، مثلما نلمحه في قوله:

فسواء بين إخوان الصفا وذوي اللهو، مغيبى والحضور (81)

فهو بين الناس حاضر غائب. وقد تبنت عائشة عبد الرحمن هذه الفكرة كقاعدة عامة، هذا ما نراه في قولها: «والأدباء الذين تلفهم دوامة من شواغل الدنيا وهموم العيش، أو تفرض عليهم ظروفهم المادية والاجتماعية الخوض في زحام الدنيا، يلقون إليها ظاهر سمعهم وبصرهم، وعالمهم النفسي يهيم بعيدا لاجتلاء الرؤى المحببة وراء أبعاد الواقع و آفاق المنظور، فهم في الزحام حاضرون غائبون» (82).

لقد طلب ابن حمديس الراحة النفسية - كذلك - في اللهو وشرب الخمر لأنهما يساعده في الانتصار على خوفه ونسيان مآسيه والتغلب على متاعب الدنيا، والتي أدت عريكته وزعزعت كيانه، فعب من كؤوس المدام المترعة حتى ارتوى، وأمثلة ذلك كثيرة منها:

هاتها صفراء ما اخترت لها
أفق الشمس على أفق يدي
خارج في راحتي مقتنص
كل هم كامن في خلدي (83)

فهي تهزم الهموم وتجلب السرور إلى الإنسان:
حمرأ يسلي شربها، وبشرها
تتسّى الهموم وتذكر الأفراح (84)

إن عملها يكمن في تخدير العقل، وحجب الواقع عن المرء، فإذا طرقت الهموم ساحته وأوصدت كل الأبواب أمامه استتجد بها لأنها تقضي على الأسى وتعوضه بالفرح، كما أنها تحقق له ما لم يحققه على أرض الواقع:

وصفراء كالشمس تبدو لنا
من الكأس في هالة مستديره
يلاعبها الماء في مزجها
فيضحكها عن نجوم منيره
إذا جار هم الفتى واعتدى
رأيت بها نفسه مستجيره
فتروي صداه، وتدني مناه
وتردّي أساه، وتحيي سروره (85)

فقد وجد في اللهو ومعاقرة الخمر وتعاطي الملذات متنفساً للضييق الذي يجثم على صدره من جراء الواقع المخيف.

لكن ابن حمديس لم يستمر على درب اللهو والخمر، فمع استمرار غربته، وتقدمه في السن، وتكتل همومه، وتفاقم أحزانه، صار اللهو والخمر لا يجديان نفعاً؛ إذ أظلمت الدنيا في عينيه فزحف السواد على كل شيء، حتى رائحة المدام التي كانت تأسر روحه ولبّه باتت لا تورثه سوى الهم، كما استحالت النغمات إلى عويل، وبرزت هذه النزعة في المراحل المتأخرة من عمره:

يا رب مجلس لذة شاهدتها
كرهاً، وجنح الليل مد جناها
جمع الشباب به بنيه، وبينهم
شيخ غدا شيب عليه وراحا
وكأنه في كل داجي شعرة
في الرأس منه موقد مصباحا
أمسيت مفظوماً عن الكأس التي
يتراضع الندماء منها راحا
إلا شميماً كان همّاً سكره
وغناؤه في مسمعي نياحا (86)

ويردُّ سعد إسماعيل شلبي سبب هذا الموقف إلى نظرة الشاعر التَّشَاؤُمِيَّة، إذ اعتبره مظهراً «من مظاهر المزاج السُّوداويّ الذي حال بينه وبين زهرة الحياة، ومتاع الدُّنيا»⁽⁸⁷⁾.

ولكنّ مساعي ابن حمديس لقهر خوفه لم تقتصر على الهروب والاستسلام، بل كان للتَّقَاوُل والمواجهة مكان عنده، لكنّهما لم يصمدا أمام نزعتي التَّشَاؤُمِيَّة والاستسلاميّة، وقد كان سلوكه في قهر الخوف إيجابياً في مراحله الأولى، يقول:

أَحَلْتُ عَزْمِي عَلَى هَمِّي فَقَطَّعَهُ كَأَنَّ عَزْمِي مِنْ صَمَامَتِي الذَّرْبِ
مَا قَرَّ بِي السَّيْرُ فِي سَهْلٍ وَلَا جَبَلٍ إِلَّا كَمَا قَرَّ جَارِي الْمَاءِ فِي صَبَبٍ
وَلَمْ أَضِيقْ فِي السَّرَى ذَرْعاً بِمَعْضَلَةٍ قَدْ زَاخَمْتَنِي حَتَّى ضَاقَ مُضْطَرِبِي⁽⁸⁸⁾

فبعزمه وحزمه، وتجنُّسه الصَّعَاب، يبدد همومه وأحزانه، ويدحر خوفه وقلقه.

ويدخل في هذا المجال تحفيز قومه على الجهاد حين كان قويّ العزيمة، كثير الطَّموح، وحين كان أمله في الانتصار كبيراً:

بَنِي الثَّغْرِ لَسْتُمْ فِي الْوَعْيِ مِنْ بَنِي أُمِّي إِذْ لَمْ أَصِلْ بِالْعَرَبِ مِنْكُمْ عَلَى الْعُجْمِ
دَعُوا النَّوْمَ إِنِّي خَائِفٌ أَنْ تَدُوسَكُمُ دَوَاهٍ، وَأَنْتُمْ فِي الْأَمَانِي مَعَ الْحُلُمِ
وَكَأْسُ بَأْمِ الْمَوْتِ يَسْعَى مُدِيرُهَا إِلَى أَهْلِ كَأْسِ حَتَّهَا بَابِنَةُ الْكُرْمِ
فَرُدُّوا وَجْوهَ الْخَيْلِ نَحْوَ كَرِيهَةٍ مُصَرَّحَةٍ فِي الرُّومِ بِالْثُّكْلِ وَالْيُتِمِ⁽⁸⁹⁾

أمّا بعد تلاشي ذلك الأمل شعر بالخيبة والاستسلام، وهو شعور خيم عليه على وجه الخصوص في المرحلة المغربيّة، والذي غداه طول اغترابه، وشيخوخته... إلى غير ذلك من العوامل الأخرى.

وبعد هذه الدراسة نخلص إلى النتائج التالية:

واجه ابن حمديس الخوف بأشكاله المختلفة، وكان أبرزها الخوف من الله والخوف من الموت اللذين بلغا أوجهما في مرحلة شيخوخته، وهما يرتبطان عنده -عموماً- بمثيرات مصيرية كالمرض، أو موت عزيز أو قريب، أو الشيخوخة.

اعتبر ابن حمديس الزمن قوة جبارة مسلطة على البشر، تسير على خلاف إرادتهم، لذلك حدّر منه مراراً، وخوّف الناس منه، على الرغم من تيقنه بعدم جدوى الاحتراس منه.

إن انتشار الرذائل والآفات الاجتماعية في عصره وتأذّيه بها ومعاناته منها أدّى به إلى الخوف من الناس، ومن ثمة التحذير من الوقوع في أشراكهم.

إن حياته غير المستقرة وسفره الدائم ألّقا به عنوة في مجاهل البحر والصحراء، وهما مكانان اقتربا في مواضع عدة من شعره بالخوف والموت والهلاك لما يضمّرهما في أغوارهما من أخطار ومهلك، لذلك نجده يوظف هذا الخوف -أحياناً- في قصائده المدحية قصد استمالة عطف الممدوح، واستدراار نواله.

يغلب على الظاهرتين الطبيعيتين: "الأمطار" و"الرياح" إتيانها -عند ابن حمديس- رمزاً للخير والعطاء والخصب والنماء، لذلك لم يلتفت إلى ما هو مدمر ومخيف منها؛ إلا أنه أبدى خوفه من الرعود التي قد يستخدم صوتها للتعبير عن الحزن ورفض الواقع الأليم.

يأخذ الخوف عنده -أحياناً- طابع الشمولية؛ إذ ينطلق من تجربته الذاتية ليعبر بعد ذلك عن غريزة الخوف التي تسكن أعماق البشر كולם.

عند تقصي مظاهر الخوف في الديوان تبين أنها تتراوح بين شخوص البصر، واتساع الحدقتين، والتكلم بصوت خافت، والأرق، والشيب المبكر، والهرب، والبكاء، واصفرار الوجه. وما هذا التعدد والتنوع إلا دلالة على اهتمامه بالجانب النفسي والشكلي سواء بسواء، بغية إيصال موقف الخوف إلى المتلقي بكل أبعاده، فتحدث -تبعاً لذلك- الاستجابة على إيقاع تجربة الشاعر.

أسفرت النصوص الشعرية عن آليات مختلفة ومتنوعة توصل بها الشاعر لمقاومة خوفه والتكيف له، من أهمها: العزلة، واللهم وشرب الخمر، والمواجهة والتحدي، وهي بهذا تتوزع بين السلب (العزلة واللهم وشرب الخمر) والإيجاب (المواجهة والتحدي) وقد ظهر المنحى الإيجابي على نحو جلي في المراحل الأولى من حياته، أما المنحى السلبي فقد خيم على شعره في المرحلة المغربية، وذلك امتداداً لنزعتة التشاؤمية ومزاجه السوداوي الذي غذاه طول اغترابه، والأحداث المروعة التي شهداها، فضلاً عن شيخوخته.

إن تعدد أنماط الخوف ودوافعه ومظاهره وآليات مقاومته في شعر ابن حمديس لدليل على ملازمة هذه الظاهرة للشاعر، ودورها القوي في توجيه سلوكاته سلباً وإيجاباً، وفي بلورة موقفه من الحياة والوجود.

الهوامش:

1- هو أبو محمد عبد الجبار أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي، ولد في سرقوسة بصقلية سنة 446هـ ونشأ فيها، وفيها قضى شبابه. غادر صقلية سنة 471 متجهاً إلى الأندلس أين اتصل بالمعتمد بن عباد ومدحه، وعندما سجن يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد في أغمات بإفريقية، بقي ابن حمديس وفيها له وتبعه إلى منفاه سنة 484هـ، وكان يتردد عليه في سجنه إلى أن وافته المنية، وقد أقام بإفريقية بعد مغادرته للأندلس ما يزيد عن نصف عمره، وفي هذا الدور من حياته عاش متقللاً بين أغمات وسلا والمهدية وبجاية وبونة وتاجنة وسفاقس ومبوكرة وسبتة، يتكسب بشعره، فمدح بني علناس ورجال دولتهم، وبني زيري وبني خرسان، حتى توفي في رمضان من سنة 527هـ ببجاية.

2- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة خوف، مج9، دار صادر، بيروت- لبنان، د.ط، د.ت، ص 99-101.

3- الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، د.ط، د.ت، ص 90.

4- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق- سوريا، ط4، 2009، ص 303.

5- الغزالي، إحياء علوم الدين، بهامشه تخريج زين الدين أبي الفضل العراقي، دار ابن حزم، ط1، 2005، ص 1503.

6- أسعد رزق: موسوعة علم النفس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ط3، 1987، ص 119.

7- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، ج9، دار المعارف، القاهرة- مصر، د.ط، د.ت، ص 407.

8- ابن حمديس، الديوان، صححه وقدم له: إحسان عباس، دار صادر، بيروت- لبنان، د.ط، د.ت، ص 281.

9- المصدر نفسه، ص 286.

10- نفسه، ص 560.

11- نفسه، ص 283.

12- نفسه، ص 265-266.

13- ينظر: حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ط3، 2003، ص 172.

14- زكريا إبراهيم، مشكلة الحياة، مكتبة مصر، د.ط، 1971، ص 197.

15- ابن حمديس، الديوان، ص 67.

16- نفسه، ص 364-365.

17- نفسه، ص 365.

- 18- نفسه، ص 283.
- 19- زكريا ابراهيم، مشكلة الانسان، ص 75.
- 20- ينظر: محمد النويهي، الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، ج1، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت، ص 428.
- 21- ابن حمديس، الديوان، ص 187.
- 22- نفسه، ص 41.
- 23- ينظر: نفسه، ص 295.
- 24- ينظر: نفسه، ص 522.
- 25- ينظر: نفسه، ص 364-365.
- 26- امرؤ القيس، الديوان، شرح: محمد الإسكندراني، نهاد رزوق، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2002، ص 327.
- 27- سورة الجاثية/ 24.
- 28- ينظر: جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة- مصر، د. ط، د. ت. ص 118.
- 29- ابن حمديس، الديوان، ص 17.
- 30- ينظر: إحسان عباس، العرب في صقلية دراسة في التاريخ والأدب، مكتبة الدراسات التاريخية، دار المعارف، مصر، د. ط، د. ت، ص 129 وما بعدها.
- 31- ابن حمديس، الديوان، ص 275.
- 32- الأري: العسل. الصل: حية من أخبث الحيات.
- 33- نفسه، ص 285-286.
- 34- فوزي عيسى، دراسات في أدب المغرب والأندلس، دار المعرفة الجامعية، مصر، د. ط، 2000، ص 343.
- 35- ابن حمديس، الديوان، ص 365.
- 36- أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، ص 149.
- 37- ابن حمديس، الديوان، ص 431.
- 38- ينظر: إحسان عباس، فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، د. ت، ص 33 - 34.
- 39- ابن حمديس، الديوان، ص 29.
- 40- الخضارم: جمع مفردة خضرم وهو البحر العظيم.
- 41- نفسه، ص 29.
- 42- نفسه، ص 289.
- 43- سيزا قاسم وآخرون، جماليات المكان، دار قرطبة، الدار البيضاء- المغرب، ط2، 1988، ص 63.
- 44- ابن حمديس، الديوان، ص 533-534.
- 45- نفسه، ص 534.
- 46- غوارب الماء: أعالي موجه. طام: عظيم.
- 47- نفسه، ص 434.
- 48- علي مطشر نعيمة، خالد عبد الكاظم عذاري، صور البحر في شعر ابن حمديس، مجلة آداب البصرة، ع42، 2007، ص 125.
- 49- ينظر: عمر محمد الطالب، القلق والاعتراب في الشعر الجاهلي، دار عكاظ، المغرب، د. ط، 1989، ص 25.
- 50- ابن حمديس، الديوان، ص 39.
- 51- المهمه: المفازة البعيدة. مكان مرت: قفر لا نبات فيه.
- 52- السمعع: وصف للذئب لخفته وسرعته.
- 53- نفسه، ص 301.

- 54- نفسه، ص 451.
- 55- سيزا قاسم وآخرون، جماليات المكان، ص 63.
- 56- ابن حمديس، الديوان، ص 464.
- 57- ينظر: نوري حمودي القيسي، دراسات في الشعر الجاهلي، بغداد، د.ط، 1972، ص 30.
- 58- يخفو البرق: يلمع.
- 59- ابن حمديس، الديوان، ص 118.
- 60- نفسه، ص 490.
- 61- نفسه، ص 222.
- 62- مصطفى عبد السلام الهيتي، الفلق، مكتبة النهضة، بغداد- العراق، ط2، 1985، ص 15.
- 63- ابن حمديس الديوان، ص 392.
- 64- نفسه، ص 217.
- 65- نفسه، ص 283.
- 66- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج2، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1، 1983، ص 204.
- 67- القرم: فحل الإبل. الشول القطيع. حقد البعير: أسرع في السير.
- 68- ابن حمديس، الديوان، ص 118.
- 69- نفسه، ص 120.
- 70- نفسه، ص 81.
- 71- نفسه، ص 306.
- 72- الشواني: جمع مفردة شونة وتعني سفينة حربية قديمة.
- 73- نفسه، ص 239.
- 74- نفسه، ص 437.
- 75- نفسه، ص 65.
- 76- نفسه، ص 252-253.
- 77- ينظر: كالفن هول، علم النفس عند فرويد، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة، سيد أحمد عثمان، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ط، 1967، ص 106.
- 78- ابن حمديس، الديوان، ص 30.
- 79- عائشة عبد الرحمن، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، ط2، د.ت، ص 223.
- 80- ابن حمديس، الديوان، ص 15.
- 81- نفسه، ص 198.
- 82- عائشة عبد الرحمن، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، ص 223.
- 83- ابن حمديس، الديوان، ص 139.
- 84- نفسه، ص 103.
- 85- نفسه، ص 184.
- 86- نفسه، ص 80.
- 87- سعد إسماعيل شليبي، ابن حمديس الصقلي، ص 156.
- 88- ابن حمديس، الديوان، ص 17.
- 89- نفسه، ص 416.